خطاب

الأستاذ الدكتور محمد بديع الكسم

في حفل استقباله

أيها السادة

إني أعتز بالثقة التي أولاني إياها أعضاء مجمع اللغة العربية الموقر ، حين تكرموا فرشحوني لأعمل معهم على خدمة أهداف المجمع ، وخدمة المستقبل العربي طوال أيامي الباقية . فشكراً لهم ، وعهداً بأن أظل أهلاً لهذه الثقة .

وإني أحيي وأشكر جميع الذين كلفوا أنفسهم حضورَ هذا الحفل .

أما حديثي اليوم عن صديقي المرحوم عبد الكريم زهور عدي ، فهو مقصور على انطباعات تحاول الكشفَ عن النابض الذي كان يحرك نشاطه المتصل .

لقد اطلع الكثيرون في الوطن العربي الكبير على خطاب الصديق الأستاذ الدكتور شاكر الفحام حين استقبل عبد الكريم في هذا المجمع . ويسعدني أن أحيل من يشاء إلى هذا الخطاب الغني الشامل . ففيه أن عبد الكريم قد حمل كثيراً من الأعباء والمسؤوليات ، فقد كان معلماً في مدرسة ، ومتطوعاً في جيش الإنقاذ (فوج اليرموك) ليشارك المجاهدين شرف تحرير فلسطين ، ونائباً عن حماة ، واستاذاً محاضراً في قسم الفلسفة بجامعة دمشق ، ومديراً لدار الكتب الظاهرية ، ووزيراً للاقتصاد ، وعضواً في وفد مباحثات الوحدة الثلاثية في القاهرة ، وباحثاً ينشر الدراسات في مجلة المجمع . وعضواً فعالاً في هذا المجمع الكريم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما كتاباته فقد كانت بخاصة في حقول الفكر السياسي وفي علوم النفس وفي التصوف الإسلامي .

☆ ☆ ☆

عندما كنا ندرس الفلسفة في القاهرة ، كان من بين معلمينا الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة ، الذي علمنا منهج الدراسة وتطبيقها بصورة خاصة على فلسفة الفارابي ، والدكتور عبد الرحمن بدوي الذي أرشدنا إلى اسهام المنطق الرمزي في بناء الفكر المعاصر ، والمرحوم الدكتور يوسف مراد الذي جاهد في تجديد العلوم النفسية ، والمرحوم الدكتور مصطفى حلمي ، استاذ التصوف الإسلامي ، والحريص على توجيه طلابه نحو الحياة الروحية . هؤلاء الأساتذة وغيرهم أرشدونا إلى طريق البحث الفلسفي وإلى ميادينه المتشعبة .

وقد سألتُ مرة عبد الكريم عن الميدان الفكري الذي يحب أن يعمل فيه ، فأجاب بعبارة موجزة وذاتِ دلالة ، مرفقاً جوابه بنظرة جادة وحادة تكشف عن اعتداد عميق بالذات : « أحب أن أكتب للخلود » . لذلك لم نكتف تماماً بما صرح به في خطابه يوم استقباله في المجمع حين قال : « إن قراءتي لكتاب المرحوم الدكتور جميل صليبا (من أفلاطون إلى ابن سينا) ربما كانت سبباً من أسبابٍ دعتني إلى تغيير اتجاهي من الرياضة والعلوم الفيزيائية إلى الفلسفة » . وإني أزعم أن سبباً كبيراً هاماً قد دفعه أيضاً إلى تغيير اتجاهه ، كما دفع الكثيرين من أصدقائه ، ومنهم الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ، إلى أن ينتقلوا من عالم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرياضيات والعلوم إلى عالم الفكر والأدب . وأعتقد أن المرحلة التي عاشها الجيل في سورية أيام الانتداب الفرنسي هي التي انعشت لديه هَم الحياة العربية وهم البحث عن قاعدة عريضة للعمل القومي .

☆ ☆ ☆

لن اتحدث عن نشاط عبد الكريم في حقل الفكر السياسي ، فكلنا يعرف جهوده الكبيرة في مقالاته وفي خطبه في المجلس النيابي . وكلنا يعرف أن المرحوم عبد الناصر قد اعجب بملاحظاته أثناء البحث في مشروع الوحدة الثلاثية . لن اتحدث عن ذلك كله ، واكتفي بأن أذكّر بما صرح به يوم استقباله في المجمع حيث قال :

« إنني رجل ابتلعت خيرَ أيامي وجهودي الرمالُ العاقة للسياسة » .

☆ ☆ ☆

في ميدان العلوم النفسية قدم لنا عبد الكريم عبر محاضراته في قسم الفلسفة بكلية الآداب تحليلاً مطولاً أو دراسة مفصلة للسلوكية . وقد أوجزها في أسطر قليلة فقال :

« يبدو لنا أن تخصيص السلوكية للموضوعية الناتجة عن نقد السيكولوجيا الذاتية يقوم على قناعات مضمرة أو ظاهرة هي :

أولاً ـ التسليم بالوحدانية المادية ، وبالتالي بالحتمية المادية الخالصة .

ثانياً ـ القول بالثنائية البيولوجية ومبدأ التكيّف .

ثالثاً ـ قبول مبدأ عمل الجهاز العصبي بأقواسِ انعكاسٍ كاملة ، وأن وظيفتَه الوحيدة هي وظيفة الربط .

رابعاً ـ فهم السيكولوجيا على أنها علم عملي يصوغ قوانين ترابطية ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقوانين تحقق شروط التنبؤ

خامساً ـ قبول مبدأ الاستمرار بين الإنسان والحيوان .

ولكن التحليل للمذهب السلوكي في دراسة الأفعال الإنسانية لايمنع عبد الكريم من أن يتخذ من هذا المذهب موقفاً نقدياً . فهو يبين أن السلوكية قد نفت الشعور كحقيقة قائمة بذاتها . وفي هذا ، كما يقول ، خروج على مخطط البحث العلمي وشروطه ، ودخولٌ في بحث ميتافيزيائي . وكل مايستطيع السلوكي تأكيدَه هو أنه من خلال عمله لايلتقي بكائنات عقلية . ولكن شروحاً غير صحيحة قادت واطسن إلى زيادة في توضيح موقفه . وهذا الموقف النقدي الذي كان يطبع كتابات عبد الكريم دائماً ، يتجلى لنا في دراسته المطولة عن أعمال سامي الدروبي في ميدان علم النفس التي بلغت مائة صفحة ونشرت في مجلة المعرفة السورية . وإذا ظهرت في كتابة هذا البحث عوامل الصداقة والوفاء ، فمن عوامله أيضاً هذا التمسك العنيد بخصائص المعرفة العلمية كما يراها الباحث نفسه . فهو يقول :

« إننا نعجب من أن نجد كتاب « علم النفس ونتائجه التربوية » ، لايخرج عن تقاليد تدريس علم النفس في سورية إلا بالتبسيط الشديد . »

وإذا انتقلنا الآن إلى خطابه يوم الاستقبال وجدناه يقف وقفة فاحصة عند تحقيق المرحوم الدكتور جميل صليبا للرسالة الجامعة التي نشرها المجمع في جزءين . ثم ينتقل بعد ذلك إلى ملاحظات الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي يرى أن هناك اختلافاً بين الإسماعيلية وبين إخوان الصفا في مسألة وجود الموجودات عن الله . فالإسماعيلية ، وشيخ فلاسفتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحمد حميد الدين الكرماني ، يرون أن وجود الموجودات عن الله لايتم بالفيض بل بالإبداع ، بينما يأخذ اخوان الصفا بنظرية الفيض الأفلاطونية الحديثة . ولكن عبد الكريم يعلق قائلاً : « إن ملاحظات الدكتور بدوي غير كافية لنزع صفة الإسماعيلية عن اخوان الصفا » . وهو يختم تعليقه بالقول : « لايسعني إلاّ التوقف بانتظار اكتشاف نصوص أخرى تميل بكفة الميزان وتفيد بعض الإطمئنان » .

☆ ☆ ☆

واسمحوا لي أن أرجع الآن خطوة إلى وراء ، إلى بحث عن « الآلة والمجتمع » يعرض فيه عبد الكريم بعض النظرات الفلسفية . فهو يقول : « الإنسان محكوم بالضرورة مرتين ، الضرورة النابعة من حاجاته ، والضرورة المفروضة عليه من عالم الأشياء والحوادث . ولكنه يتحرر من الضرورتين منذ ماتلتقيان التقاء معيناً يزيلهما كلتيهما ، منذ ماتُشبع الأشياءُ والحوادث حاجاتِه . أي أن الإنسان يتحرر من الضرورة بالخضوع للضرورة . فالإنسان يرتفع إلى أفق الحرية من أفق الضرورة . ولايقف الأمر عند هذا الحد بل إن الحاجات تتجدد دائماً ويتجدد التخلص منها ، أي أن الإنسان يظل دائماً ممزقاً بين الضرورة والخلاص منها ، يتردد بين النقيضين ، ويدوّر حياته في دائرة مغلقة » .

وهو يختم محاضرته بعرض تصنيف للمذاهب الاقتصادية والسياسية العصرية على الوجه التالي :

١ ـ النظريات التي تمثل الهرب من المشكلة واللجوء إلى الماضي السعيد .

٢ ـ نظريات تمثل اللجوء إلى الاسطورة والأحلام والماضي السحيق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ ـ نظريات تمثل الإيمان بعفوية الإنسان وسلامتها وقدرتها على التغلب على مأساة العصر .

٤ ـ نظريات تمثل الإيمان بالنظام الرأسمالي والعلم وقدرتهما على علاج العلل الناشئة عنهما .

٥ ـ حركات ونظريات تمثل الثورة السلبية على النظام الرأسمالي أو بالأحرى النقمة ، وفيها يطرح الإنسان مفهوم العدم ، وينادي بتهديم كل شيء قائم ، دون تصور للبناء المقبل على انقاضه .

٦ ـ مذاهب تمثل الثورة الايجابية ، الثورة الصحيحة على هذا العصر الآلي ، تقوم على المنطق الجدلي لتقاوم به المنطق الآلي . ومثالها الفلسفات الوجودية .

٧ ـ مذاهب تمثل الثورة الايجابية أيضاً وتقوم على المنطق الجدلي . وهي ترى أن هناك وجوداً طفيلياً متبقياً من مرحلة تاريخية سابقة هو سبب الخلل في المجتمع الحديث ومدعاة الثورة عليه ، وهو الملكية الفردية ، فهي العلة في أزمة النظام الرأسمالي واهدار قيمة الإنسان . فلو أُزيل هذا الوجود الطفيلي فأصبحت الملكية جمعية إذن لاستقامت حياة المجتمعات ولاسترد الإنسان كرامته . ومثالها بخاصة الاشتراكية الماركسية ، التي هبطت بالمنطق الجدلي من مستوى العقل إلى صميم المادة ، وأدخلته في التاريخ بصورة صراع بين الطبقات ، انتهى في هذه المرحلة التاريخية إلى أن يكون صراعاً بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة . فالطبقة العاملة هي الطبقة الثورية وهي المؤملة في الإطاحة بهذا النظام ، بنظام الملكية الفردية وبكل نظام قائم على الاستغلال . ولأن هذه الاشتراكية تقر بالتأثير الجدلي للتفكير ، فهي تعطي قيمة كبيرة للنظرية الثورية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتثقيف الطبقة العاملة بها وتقر بتفسيراتها لأزمات النظام الرأسمالي وتناقضاته في إعداد الطبقة العاملة للثورة . ثم زادت ملامح هذه النظرية دقة من حيث هي أداة للعمل على يد لينين حين بين أنه بالإضافة إلى الوعي الثوري لابد من تنظيم الطبقة العاملة وقيادتها ، وإن ذلك يكون بالحزب الثوري ... بآلة ضخمة عناصرها من الإنسان ، آلة ثورية باردة برود الآلة قاسية قسوة فولاذية ساحقة ، لولا أن روحها إنسانية » .

وإذا انتقلنا الآن إلى ميدان التصوف كما انتقل إليه عبد الكريم دراسة متعمقة وأسلوب حياة وجدنا أنفسنا أمام بحر لاحدود له . لذلك أرجو قبول اعتذاري لعدم معالجة هذا الجانب الخصيب من حياة عبد الكريم وفكره ، وأرجو أن أستطيع ذلك في أيام مقبلة .

ولكني أحب أن أشير إلى مسألة واحدة . فقد سألني قبيل وفاته ، عن دراسات جديدة وجيدة في الحب . ولما بدا عليّ لأول وهلة شيء من الاستغراب ، ابتسم ابتسامته التي عُرف بها وكرر السؤال . عندها ادركت مقصده وسألته إن كان يملك كتاب الحب الإلهي عند ابن الفارض لأستاذنا المرحوم مصطفى حلمي ، فأجابني : « طبعاً لقد قرأته » . واتفقنا على أن نعود إلى هذه المشكلة قريباً ، ثم كان ماكان .

أحب في كلمات قليلة ، عرض الانطباع الشخصي الذي أحسست به خلال اتصالي بعبد الكريم وبكتاباته . لقد احتفظ عبد الكريم طوال حياته ، ومنذ إقباله على الدراسات الفلسفية ، بمبادئ موجهة لم يتراجع عنها في لحظة من اللحظات . من هذه المبادئ أن بلوغ الحقيقة لايتم إلا من خلال موقف أخلاقي ، ومنها أن تجاوز الحياة الزمنية لايتم إلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالالتحام بمشكلات الزمان نفسه ، ولابد من جسر يصل الحياة اليومية بالتطلعات الروحية الكبرى ، أي لابد من تجربة غنية ترتكز على الاتصال بقضايا الحياة وبالانفصال عنها في وقت واحد ، ومنها كما يقول في خطاب استقباله أن هموماً قومية تعد الإنسان لأن يكون من أبناء أمته البررة ، وتلك لعمري مقامات عليا يشرف الإنسان ، أيّ إنسان أن يزحف في عتباتها ، وقد تعلو على مقامات العلماء ، ولكنها من عالم آخر غير عالم العلم . وطوبى لمن اتسعت نفسه للعالمين .

☆ ☆ ☆

لقد أراد عبد الكريم أن يطرق أبواباً كثيرة حتى لو لم يكن هناك باب يمكن أن يفتح . هكذا نفهم نزوعه إلى الإحاطة المستمرة وإلى تنويع التجارب كي يستطيع إعطاء معنى للحياة . لقد كان في ذلك كله يمثل بصورة حادة ومتحركة مايعتمل في نفوسنا جميعاً حين ننطلق إلى ميادين البحث والتأمل . كان عبد الكريم يبحث دائماً كما لو كان يفتش عن ضالة عزيزة عليه . وينبش الأماكن هنا وهناك . إنه كمن ألم به وجع وظل يبحث في فراشه عن وضع يريحه ، حتى وجد الراحة الكبرى . رحمه الله ، والسلام عليكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net